من قاصيص اليابان

وفاء راقصة

للكاتب لافكاديو هيرن

بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد

تعريف

« لافكاديو هيرن كاتب كبير ، ولد من أم يونانية وأب إيرلندى . طوف فى البلاد وهو فى ريعان صباه ثم قصد إلى أمريكا وعرج على اليابان حيث أصبح مواطنا تحت اسم « كويزومى ياكومو » . ألف كثيراً من الكتب التى يظهر فيها التحليل العميق والشعر السامى والفلسفة النافذة . درس الحياة الاجتماعية فى اليابان دراسة دقيقة ، بعد أن أصبح أستاذاً للأدب الانكليزى فى جامعة طوكيو . له من المؤلفات : كتاب « اليابان المجهولة » و « فى صميم الحياة اليابانية » وغيرها . وهذه قصة ذكرها عند بحثه عن نفسية اليابانيين ، أخذناها عن كتابه « اليابان المجهولة » وهى ليست بحاجة إلى تقديم ، إذ تقدم نفسها بنفسها لما فيها من الدقة فى الوصف والجمال فى المعنى والرشاقة فى الأسلوب . »

حدث من كان فى الأيام الخوالى . . أن فتاناً بارعاً أراد ، وهو فى صدر شبابه ورونق يفاعته ، الطواف فى بلاده ، ليوقد حسه فتضطرم عاطفته ويفيض شعوره وتخط ريشته ما يبهر العين ويسكر النفس ويحيي الشعور . وكانت البلاد آنئذ مليئة بغابات الصنوبر ومزارع الأرز ، والحقول مغمورة بأفواف الورد والزهر ، والقرى مكتظة بالأكواخ والجواسق . وحفاف الطرقات تحمل تماثيل « الجيزو » الضاحكة لحجاج الحيا كل وقصاد المعابد . . والأنهار تبسم للنواعم من الفتيات اللاتى كن يأتين ليرتمن فوق الحشيش الأخضر ويجمعن من ضفافها أعواد الزنبق ، وأنواع الزهور ... وكل ما هنالك مغمور بالجمال والسحر ، ومفعم بالفتنة والبشر ، ومملوء بكل ما يحب ويشتهى .

وانطلق الفنان يمتع العين بالنظر ، والنفس بالتأمل ، والقلب بالنور . ويحلق فى عالم علوى يموج بالشعر والفتون . فأدركه المساء ، ذات يوم ، وهو فى واد منعزل يضل فيه السائر ويتيه العابر . فانقبض صدره واضطرب باله . وحار ، فما يدرى إلى أين يأوى وفى أى مكان يبيت . وكان ظلام السماء وأنين الصنوبر ، وسجو الليل ، كان كل ذلك يملأ جنبات الوادى رهبة وحزناً ؛ فوقف المصور يفكر ، وقد بعث هذا المنظر فى نفسه لذة وانقباضاً ولكنه انقباض وديع يرف فيما حوله ، ويدفعه لأن يقلب بصره مرة ومرة فى هذا المكان الذى لا تسمع فيه سوى زفيف الريح تبث حزنها لأفنان الصنوبر ... وإلا زفرات الصراصير الحادة تتصعد على وتيرة واحدة . فمشى على غير هدى تائهاً بين الأشجار والأزهار ، وتنقل فى ضلال بين الحقول والبساتين ، والظلام دامس والحلك شديد . ثم هبط إلى السهل ، ومشى فى الوادي ، وصعد فى الجبل ، يفتش عن مأوى ، فما وجد المأوى ولا هدى السبيل ...

ويئست نفسه وضاقت بالكون .. فعزم على المبيت تحت النجوم بين الأخاديد ... ولكنه أبصر فجأة فى منبسط السفح وراء المنحدر الذى صعد فيه ، شعاعاً خفيفاً يخفق ويضطرب ، فقام يعدو .. نحوه ، فاذا هو أمام كوخ كبير .

وطرق الباب بقلب خافق ونفس قلقة . فسمع من داخل الدار صوتاً عذباً يسأل عن الطارق . فطفق الفنان يحدثه عن نفسه وكيف ضل فى الوادى وقد أقبل الليل وخيم الظلام . وطلب المبيت فى الكوخ حتى يتنفس الصبح ويظهر له الطريق . وفتح الباب . . فاذا فتاة تحمل بيدها مصباحا أضاء الكوخ . فقادته إلى غرفة نظمت تنظيما يدل على ذوق تام وفن بارع . فجلس ينظر إلى الفتاة ... فبهت فجأة ... ياللحسن الساحر والسنا الفياض ! لقد كانت رفافة الاهاب ، غضة الشباب ، وكانت تميس تيهاً ودلالاً ، ويفيض جسمها إغراء وفتوناً . . آه ! إنها من بنات المدن وليست من القرويات . . .

وأخذ الفنان يستمع إلى صوتها العذب المشتهى وفى عينيه وميض صبوة محرقة وظمأ قتال . قالت له بنبرة حلوة مسكرة :

— « أنا وحيدة فى هـذا الوادى ... عزفت عن الناس وعزف الناس عنى . والطريق فى شعاف الجبل صعبة ملتوية ، فابق هنا ، فان ما أقدمه لك ليس بالكثير .. وما عندى شىء . ولكن سأعطيك سريرى ، وسأقدم لك قليلا من الحلوى .. »

وقبل الفنان أن يبيت وقد هفا قلبه إلى الحسناء ورقص من أجلها طرباً . وقامت الفتاة فأشعلت النار .. ثم قدمت للضيف ما يأ كل منه

على أن نظام الدار ، ونظافة الأثاث ، ونسق الترتيب وأناقة الطراز ، بهر نفسه وأعجبهـا . وخصوصاً هذه الزينة التى تجمل المكان ، والتى صنعت من الورق الأبيض الذى صور عليه أزاهير الربيع ، وأمطار الصيف ، ونجوم الخريف ، وظهر فيه سيف البحار ومياه الغدران وعواصف الشتاء مما يطرب الشاعر ويهز الفنان . وكان فى زاوية الغرفة مذبح صغير يتصاعد منه رائحة البخور المسك وفى داخله منضدة فرشت بالورود الوحشية . تحترق أمامها شموع كثيرة ببطء ، فتضىء صورة « كانون » إلهة الرحمة والغفران .

وأكل الفنان مما قدم له مضطرباً حائراً لكثرة ما علق بصره فى الفتاة ، فنهى الأكل فلما فرغ منه قالت له :

— هذا هو سريرى ياسيدى أقدمه لك .. مع كلة من الورق الأبيض . وسأمضى إلى أعمالى فى الدار فنم ياسيدى بأمان .

ومانع الضيف . . . ولكنها طلبت منه بلهجة الأخت ، وبدلال الغوانى أن يستريح من غبـار السفر ، ثم تراجعت ، ووضعت أمام سريره حاجزاً من الورق ، قسم الغرفة إلى قسمين ، وتمنت له نوماً هادئاً ومساء حلواً وتركته وعلى ثغرها ابتسامة كلها فتون وإغراء .

* * *

وما كاد الفنان يغمض أجفانه ، حتى غاب فى نوم عميق ... ولكنه مضطرب متقطع . وفجأة سمع صوتاً غريباً أيقظه . . ثم وقع أقدام . . لـكن ما هذه الأقدام .. إنه مشى لا خفة فيه ولا هدوء .. إنه وقع قوى .. فيه حركة وفيه حياة .. قال فى نفسه : ترى أقدام من هذه ؟ ... ليت شعرى ألصوص يطوفون حول البيت ويرتمون فى جنباته، أم قطاع طريق .. ؟ ماذا ؟ أيريدون المتاع أم اختطاف الفتاة . . ! ؟ ترى أتستسلم لهم . . ؟ أتذهب معهم . . ؟ أواه ! يا لجمالها الباهر . . ! ومالى

لا أقوم . . إن الحركة لتزداد . ومد الفنان رأسه من الكلة ولكنه لم يستطع رؤية شيء ، فالحاجز الذى وضعته الفتاة يحول دونه ودون أولئك ! رباه ! ماذا أفعل ؟ أأصرخ ؟ ولكن ماذا يفيد الصراخ . . ؟ ومن يجيبه ؟ الهواء النائح ، أم الليل الوسنان ؟ . . إذن لأقدم ، فلا بد مما ليس منه بد . . وارتدى ثوبه وتقدم . . تقدم . . وأخذ ينظر إلي ما يجرى وراء الحاجز . فوقف مبهوتاً لا يتكلم ولا يتحرك . . .

لقد رأي الصبية الحسناء . . عارية الساقين . . ممتلئة الفخذين . . بارزة الثديين . . قد زينت نحرها باللؤلؤ ، وصدرها بالدر ، وبعثرت الحلى هنا وهناك . . لقد رآها ترقص أمام المدح بثوب قصير فاتن . . لا تجده عند الراقصات المحترفات . وقد زين بالحلى وضمخ بالعطر . . وهى تبكى . وكان جمالها سحريا كأنما مسحت عليه يد الملائكة وأفاضت عليه فتنة من فنها وجمالا من جمالها . . يا للحسن الباهر ! والأنوثة الرقيقة ! والرقص العبقرى . . . ! لقد وقف دهشا . وخيل إليه أنها إحدي الحور العين . وغاب عن نفسه . . وحلق فى عالم بعيد . . بعيد جداً . فنبهه شذى البخور المحترق ، وهذا الاله الذى يطل من فوق المدح وينظر بعينين عميقتين . فأراد أن يعود إلى سريره . . لأن ما يفعله منقصة وعيب . . ولكن روعة المشهد ، وفتنة المرأة ، وسحر المرى . . كل ذلك سيطر عليه فأوقفه . . ودفعه إلى أن يتأمل . . ويتأمل .

يا للساقين ! ليت شعرى أ أعمدة من مرمر أم قطع من رخام . .

وهذان الثديان ! لم يرقصان . . ؟ يا رحمتا لهما . . أيبكيان بعد الحبيب !

وهذا الصدر ! أواه . . . هنا يلتمس السحر ويطلب النعيم . . .

والفم الرقيق . . . والعيون . . . والخدود . . . هنا تتيه الشفاه الظامئى تلتمس القبلات . .

تباركت يا إلهى ! تباركت يا بوذا ! وقفزت الصبية قفزة إلى الأعلى . . . ثم هبطت ، ووقفت أمام المدح تبكى . . ثم قامت تنزع ثوبها . . ولكنها . . تراجعت . . تراجعت إلى الوراء . . عندما رأت عيناً تحدق فيها .

واضطرب الفنان وتلعثم فايدرى ماذا يقول . . وبأى شيء يعتذر فاقتربت منه حتى تبينته . . ووقفا وقد علق بصر كل منهما بالثانى وتشجع . . وقال :

— من أنت إذن يا فتاة ! عفواً . . . عفواً . . . إغفرى لى زلتى . . أأنت طيف من أطياف الجنان ؟ أم ربة من الربات الحسان . . ؟ ومن أين تعلمت هذا الرقص . ؟ أإنسية أنت أم من الجان . ؟ أنا لم أر بين راقصاتنا من يرقص مثلك يا فتاة ! لا تغضبى . . . عفواً . . عفواً . . لقد أخطأت . .

قالت له بصوت ناعم ولهجة حزينة . .

— كلا . . لم أغضب يا سيدى ، ولكنى أخاف أن تحسبنى من بنات الهوى أو أن بى مساً من الشيطان . . إصغ إلىّ يا سيدى ، فها هى ذى قصتى سأنفضها بين يديك . .

وأخذت الفتاة تقول إنها إحدى بنات الأشراف ممن باركهن الاله وقربهن الميكادو . .

ولكنها كانت فقيرة بائسة .. فأحبها شاب لا يقل عنها فى الشرف والجمال ، وإن زاد عنها فى الغناء والثروة . وفرّا ذات ليلة من أهليهما .. ليعيشا معاً ، وكان معهما من المال مايكفيهما . فذهب بها إلى واد منعزل ، بجانب إحدى الغابات المذارى ، فبنى هذه الدار وعاش يعبدها فيها ... ويرى أنها ملك أرسله الاله إليه ... لقد عاشا سنوات وسنوات ، ملكا فيها الحب والسعادة والآمال .. وكان يحب أن يراها ترقص عارية كل ليلة على أنغام الناى الحزينة .. فكانت ترقص وتبدع .. فيمضى إلى أقدامها الصغيرة يقبلها .. ويسكب دموعه فوقها . ولكنه مرض .. مرض ذات مرة فى الشتاء ... فعنيت به ، ولكن واأسفاه ، أخذه الموت .. ومضى

لشد ما أحبته ! لقد وهبت له قلبها ومالها وجسدها ...

كم مرة ... كانت تنحنى على أذنيه تسكب فيهما أناشيد الخلود !

كم مرة ... كانت تحدثه عن أقاصيص الحب وأحلام الهوى !

كم مرة ... كانت تتعرى فى الليل ... ثم ترقص رقصات فاتنات ... والبرد يلذع جسمها العارى وأقدامها الصغيرة

لقد توسلت كثيراً إلى بوذا ... وبكت كثيراً أمامه ... ولكنه ... وا آسفاه ... لم يسمع لها ... أبدا

منذ ذلك الحين ... عاشت وحيدة فى هذه الدار تحفظ الذكرى التى كانت تملأ قلبها ونفسها . فكانت تصلى لروحه كل يوم أمام المذبح ... وتبكى ... فاذا ما سجا الليل ... ونامت العيون ... وسكنت النفوس ، قامت فتعرت ، ولبست ملابس الرقص القديمة ... ورقصت كثيراً وهى تسكب الدمع . حتى ينهكها الرقص وتمل البكاء ...

وأطرقت قليلاً تجفف عبراتها المنسكبة ثم قالت

— حسبت أنك نائم ، فقمت لأرضى روح زوجى ... ولكنك ... رأيتنى ... نعم

أنا أرقص كل ليلة ... وهو ينظر إلىّ ... هذا دأبى حتى أموت . قم ونم أيها الزائر . هذه قصتى نفضتها بين يديك ...

وبكى الزائر رحمة لها .. ثم قام إلى سريره يفكر ويسمع ...

ونام نوماً هادئاً .. لم يستيقظ منه إلا وقد متع النهار . وقام يريد الذهاب ، فقدم لها قليلا من الدراهم فضحكت ... وقالت له :

— لا أستحق ذلك يا سيدى ... لقد قمت بواجبى .. !

ومضى الفنان ، يفكر فيما رأى وسمع ... لقد أسف على شئ واحد ... إنها تجهل اسمه ، ولكنه قال لنفسه : ما أنا إلا فنان حقير ...

* * *

وتقلبت الأيام ، وتغير كل شئ فى هذا الكون ... وشاخ الفنان ، ولكنه كسب شهرة ما كسبها أحد قبله ، وسار ذكره فى البلاد ، وجاءت إليه الثروة تجر أذيالها وقربه الملوك والأمراء ... وعظمته الخاصة والعامة ، وعاش تحفه السعادة ، ويرفرف فوقه الهناء ... !

وكان له قصر يقطنه مع تلاميذه ممن أتوا من أقصى بلاده وأدناها ليتلقوا الفن عنه . وكان كل شىء هادئاً طبيعياً فى هذا القصر . إلا تلك العجوز الشمطاء التى كانت تأتى كل يوم ، فتسأل عن الفنان

وتلح فى السؤال . ثم تطلب مقابلته وتلحف فى الطلب فاذا سؤلت عن طلبها قالت : لى معه شأن .. فكانوا يردونها ظانين أنها فقيرة متسولة . فتعود فى اليوم الثانى تسأل عنه وتطلب رؤيته ! فاذا ما ردت عادت فى اليوم الثالث ، تحمل كعادتها صرة صغيرة تحت إبطها .

وضجر التلاميذ من العجوز وضاقوا بها ذرعاً فأخبروا شيخهم بخبرها . فغضب وذكر أيام بؤسه ومحنته وقال لهم : إذا أتت فى الغد فأدخلوها .

وجاءت العجوز فى اليوم الثانى تدب دبيباً فأدخلت إلى قاعة واسعة . وهناك جلست تنشر أثواباً غريبة نادرة من الحرير ، عليها وشى من الذهب . قد زينت بأنواع الحلى واليواقيت . فأخذ الفنان يحدق .. ثم أغرق فى ذهول عميق . ذكرى قديمة . قديمة جداً .. تأتيه ، إنها مضطربة حائرة . غامضة . . ها هى ذى تظهر شيئاً فشيئاً .. إنه يرى الجبل والوادى والكوخ المنفرد ، والراقصة فى جوف الليل ، أمام الشموع المحترقة ، بين الورود والأزاهير ..

ونظر إليها وقال :

— عفواً ياسيدتى .. سأكلمك . . ولكنك هل تذكرين أيامك الخوالى قبل أربعين عاماً . . . خمسين عاماً . . . هل تذكرين المأوى الذى آويتنى فيه وقصة حياتك تحدثينى عنها بين الدموع . آه . أنا لم أنس شيئاً !

وأغرق الفنان فى صمت عميق . أما العجوز فبهتت ولم تدر ما يقول . وأخذت تفكر وترجع إلى الوراء . إلى الماضى البعيد . . . إنها تراه . . . يطرق الباب ، ثم يدخل ... ثم ينام ... وتنتفض فجأة : عين تحدق بها وترى جسمها العارى ، فى هدأة الليل . !

يا إلهى ! شكراً لك .. لقد تدت خطواتى إلى هذا السيد الرحيم ..

وطفقت العجوز تحدث الفنان عما أصابها قالت له :

— « وقست علىّ الأيام ، وأصبحت ما أطيق العيش هناك ... فتركت تلك الدار ورجعت عجوزاً فقيرة إلى المدينة التى تركتها وأنا فتاة حلوة الشباب غضة الصبا . شد ما تتغير الأشياء ! إنه ليصعب على المرء أن يترك المكان الذى ذاق فيه حلاوة العيش ولذة الحب .. بين ألافه وأحبابه ! ولكن كل شىء هيّن ياسيدى أمام هذه الشيخوخة القاهرة .. لقد منعتنى عن الرقص إذا ما جاء الليل أمام المذبح على نور الشموع وفاء لزوجى . أواه ! .. يا للهفة المحرقة والألم الممض ! وأصبحت لا أستطيع الحركة أو القيام . إن روح زوجى ترفرف كل ليلة تريد رؤيتى راقصة ! ولكن ... واأسفاه ! لقد جئت إليك لتخط ريشتك صورتى . . صورتى إذ كنت فتاة ، أرقص فى جوف الليل أمام المذبح ، وأنا عارية الجسم ، لأضعها أمام عينى الاله ، فاذا ما جاءت روح رفيقى ترفرف رأت الصورة فرضيت عنى !

وبكت العجوز ... واغرورقت عينا الفنان . وقال لها :

— لك ما تشائين !

قالت له :

— ولكن شيئاً واحداً يحزننى ياسيدى ، فأنا فقيرة ما عندى ما تريده منى . . . سوى هذه

الأثواب .. فتقبلها منى .. واحفظها إن شئت للذكرى !

— كلا .. كلا .. ما أريد شيئاً .. قرى عيناً .. واطمئنى .

وتهلل وجه العجوز بالبشر وقالت :

— لك الحمد يا إلهي .. لقد تحققت منيتى . لتكن صورتي ياسيدى جميلة .. فاتنة .. علها ترضى المفقود .. !

وأخذ الفنان يخط بريشته صورة رائعة فاتنة ، بهت منها التلاميذ . لقد حدقوا طويلاً بهذه الفتاة الناعمة ، ذات النظرة الساحرة ، والقد الأهيف ؛ وهذا السحر الذى يفيض من هنا ، ويظهر من هناك ، وينظرون إلى هذه الأثواب الوشاة بالذهب المزينة بالحلى ، المفعمة بالألوان .. يالله ؟ شد ما تشبه بنات السماء [1]

فلما فرغ من صورته .. قدمها للعجوز

— أتريدين شيئاً من الدراهم ياسيدتى .. ؟

— كلا ياسيدى .. شكراً لك .. لن أعنى بعد اليوم شيئاً ؛ ولئن مت فان بوذا سيفتح لى طريق جنانه .. وسأدعو لك .. كل مساء أمام المذبح ، شكراً لك ياسيدى .. شكراً !

— أين مأواك ياسيدتي ؟

— إنه حقير .. لا يستحق زيارتك !

ومضت العجوز تمشى مشياً وئيداً يتبعهـا تلميذ أرسله الفنان يرى مأواها

— إنه مأوى حقير ياسيدى .. بجانب النهر .. وراء المستنقع ..!

— سنراه غداً . وسنتعهده بعنايتنا

* * *

وفى اليوم الثاني جاء الفنان يدق الباب ، فلم يجبه أحد ؛ فنادى العجوز . ثم ضاق ذرعاً ودفع الباب .. فانفتح . يارحمتا لها ! لقد كانت ممددة على الأرض ملتفة بثوب ممزق أمام المذبح . وكانت الشموع آنئذ ، كما كانت قبل خمسين عاماً ، تحترق ببطء ، والبخور يتصاعد فيملأ الكوخ بشذاه المسكر ... وكان فوق المذبح صورتها إذ كانت فتاة ، تقابلها صورة ثانية لآلهة الرحمة .. وهنا خرق ممزقة .. وهناك عصاً طويلة .. !

لقد تقدم الفنان ليوقظها .. فناداها .. وكلمها .. وحدثها .. ولكنها ما كانت لتسمع أو تجيب .. فسقطت من عينيه دمعة ... وعلم أنها لن تستيقظ أبداً !

يالله ! لقد امحت آثار الألم .. وعاد إلى وجهها جماله ، وظهر عليه الوقار والجلال ، ورفرفت فوقها بنات السماء يستغفرن لها ويأخذن روحها إلى السموات العلى !

يا للوفاء ! ... يا للوفاء ! ...

« دمشق » صموح المدير المنجد

(١) أى الملائكة

إدارة الرسالة والرواية

انتقلت إدارة الرسالة والرواية إلى دارها الجديدة

بشارع المبدولى رقم ٣٤ — عابدين